إسهام مدارس تلمسان في الحركة العلمية بالمغرب الأوسط خلال القرنين (8هـ-9هـ/14م-15م)

بوشقيف عائشة
طالبة دكتوراه قسم التاريخ جامعة أبو بكر بلقايد تلمسان
بإشراف أ.د/ مبخوت بودواية

عرفت مدينة تلمسان خلال القرنين (8هـ-9هـ/14م-15م) حركة علمية لا مثيل لها، ضاهت بها مختلف حواضر الأقطار الإسلامية مما جعلها قبلة طلبة العلم الذين توافدوا عليها من كل مكان، وهاجر إليها العلماء الذين تولوا التدريس بمدارسها المشهورة، التي دفعت بالحركة الفكرية و الثقافية إلى الأمام و يرجع الفضل في ذلك إلى اهتمام السلاطين بهذه المدارس و العناية بها، فكانوا ينشئونها ويقومون بترميمها، و وقف الأحباس عليها. و يهتمون أيضا بالمدرسين و يوفرون لهم كل السبل الناجحة للقيام بمهامهم على أتم وجه، ويوفرون للطلبة المسكن و المأوى و يزودونهم بنفائس الكتب، و نوادر المخطوطات في مختلف العلوم سواء النقلية (كالفقه و التفسير و الحديث و الآداب) ، و العقلية (كالرياضيات و علم الفلك و المنطق و الطب...).

إذن فالمدرسة عبارة عن مؤسسة تعليمية رسمية بُنيت بأمر من السلطة الحاكمة وفق تخطيط محكم، لتؤدي وظائف تربوية و اجتماعية و ثقافية في المجتمع الزياني.

هذا و كان يُبنى بالقرب من المدارس المرافق الضرورية للوافدين عليها مثل غرف الطلبة و عابري السبيل و المكتبة لاقتناء الكتب، أما المصادر المالية لها فتمثلت في الأحباس و الأوقاف[1]، حيث كانت تستغل في دفع أجور المدرسين و العمال و الترميم و الصيانة.[2]

وظهرت المدرسة كمؤسسة تعليمية نظامية في مدينة تلمسان ابتداءا من القرن الثامن الهجري الرابع عشر ميلادي، و قد اهتم الزيانيون لإنشائها بهدف نشر التعليم و الثقافة و رفع مستوى الوعي للرعية و توجيههم لخدمة المجتمع، و قد اقتدى ملوك بنو زيان بنظام بلاد المشرق في إنشاء مدارسهم، كون أهل المشرق كانوا السباقين في إنشائهم للمدارس و أشهرها المدرسة النظامية ببغداد التي أسسها الوزير السلجوقي نظام الملك[3](456هـ-485هـ/1046م-1092م).

هذا و اشتهرت بلاد المغرب الأوسط بكثرة المدارس، خاصة في مدينة تلمسان المعروفة بمدارسها الخمس، فكانت بمثابة معاهد عليا للتعليم في شتى المجالات، و قد عدها الحسن الوزان أثناء رحلته إلى تلمسان مع مطلع القرن (10هـ/16م)[4]، حيث ساهمت بشكل فعال في نمو و ازدهار

الحركة التعليمية و دفعها إلى الأمام أثناء فترة حكم بني زيان، و أهم المدارس التي عرفتها تلمسان الحاضرة هي:

- **مدرسة ابني الإمام:**

تُعرف كذلك بالمدرسة القديمة، و هي أول مدرسة بُنيت بتلمسان بالقرب من باب كشوطة، أسسها السلطان الزياني أبو حمو موسى الأول (ت 718هـ/1318م)، سنة (710هـ/1310م)[5]، و عَيَّنَ للتدريس فيها ابني الإمام أبي زيد عبد الرحمن (ت 743هـ/1342م)، و أخيه أبي موسى عيسى (ت 749هـ/1349م)[6].

هذا و أصبحت المدرسة تُعرف باسميهما، قال فيهما ابن خلدون "و تركا بتلمسان خلقا كثيرا ينتحلون العلم كبيرا و صغيرا بلغ كثير منهم مقام التدريس و العلم و الفتيا في النوازل نجابة و درس ونظر"[7]، و بما أن هذه المدرسة هي أول مركز تعليمي رسمي في حاضرة بني زيان، فقد عُيّن للتدريس فيها كبار العلماء الذين قادوا الحركة العلمية إلى الأمام خلال القرن 8هـ/14م و لم يبق من هذه المدرسة اليوم سوى المسجد الصغير بمنارته الذي أُسس بجانبها، و يُعرف عند أهل تلمسان باسم "مسجد ولاد ليمام" بالقرب من باب الجيّاد.

- **المدرسة التاشفينية:**

أسسها السلطان "أبوتاشفين عبد الرحمن الأول"، بالقرب من المسجد الكبير بتلمسان و اعتبرت هذه المدرسة أهم مدرسة بالمغرب الأوسط، و درس بها العالم الفقيه أبي موسى عمران المشدالي الزواوي، أعرف أهل عصره بمذهب الإمام مالك.[8]

و جهز السلطان لبنائها أمهر البنائين و المهندسين و الفنانين، أصحاب الكفاءات و المهارات العالية في البناء و الزخرفة و التزيين، فكانت هذه المدرسة الجليلة عديمة النظر و لقد اعتبر الحافظ التنسي يوم تدشينها يوما عظيما و مشهودا، خضره العلماء و الفقهاء و أدباء تلمسان.[9]

و ظلت هذه المدرسة تمثل أضخم مدرسة بالمغرب الأوسط، تقدم وظيفتها التعليمية مدة خمسة قرون، إلى أن قامت السلطات الاستعمارية سنة 1876م، بتهديمها دون إعطاء قيمة للفن و التاريخ، ونقلت بعض آثارها إلى متحف تلمسان، و متحف كولوني بباريس.

- **مدرسة أبي مدين شعيب الغوثي بالعباد:**

أسس هذه المدرسة السلطان المريني أبو الحسن سنة (748هـ/1347م)[10] بقرية العباد، قرب مسجد و ضريح الولي أبي مدين شعيب (ت 594هـ/1197م)، بعد استيلائه على مدينة تلمسان سنة (737هـ/1336م) و كانت مكونة من طابقين سفلي و علوي، و كان بهما غرف و حجرات لتدريس الطلبة. وتميزت هذه المدرسة بفنها المعماري و زخرفتها، و مرافقها المتعددة التي كانت مسخرة لخدمة المدرسين والوافدين من الطلبة و هي لا تزال قائمة إلى يومنا هذا تشهد على مدى إزدهار العمارة الإسلامية المرينية بالمغرب الأوسط.

- **مدرسة سيدي الحلوي:**

بنى هذه المدرسة السلطان أبو عنان فارس المريني إلى جانب مسجد و زاوية و ضريح الولي "أبي عبد الله الشوذي الإشبيلي" المعروف بسيدي الحلوي سنة (754هـ/1344م)[11]، و عين للتدريس في هذه المدرسة العالم الكبير "أبي عبد الله المقري" المعروف بالجدّ.

- **المدرسة اليعقوبية:**

أسس هذه المدرسة السلطان أبو حمو موسى الثاني سنة (765هـ/1363م) و سميت باليعقوبية تخليدا لذكرى والده أبي يعقوب يوسف الذي كان حاكما لمدينة الجزائر و توفي سنة (763هـ/1362م)، فأمر ابنه بأن يُدفن بعد موته في رياض يقع بباب إيلان[12]، ثم نقل إلى جواره رفاة عميه "أبي سعيد" و"أبي ثابت"، من قبريهما بالعباد، ثم بدأ في بناء هذه المدرسة قرب أضرحتهم.

وبعد إتمام بنائها استدعى العالم الإمام الشيخ الشريف الحسني أبي عبد الله (ت 771هـ/1370م) للقيام بمهمة التدريس فيها[13]، و كان أبو حمو موسى الثاني يحضر مجالس إقراء هذا العالم فيها جالسا على الحصير تواضعا للعلم.

و تاريخ إنشاء المدرسة اليعقوبية وقع فيه اختلاف، حيث يذكر يحيى بن خلدون صاحب كتاب بغية الرواد بأن تأسيس هذه المدرسة كان في شهر شعبان سنة (763هـ/1368م)[14]، بينما يرى التنسي صاحب كتاب نظم الدر و العقيان بأنها أنشئت سنة (760هـ/1359م)، و كان تاريخ افتتاحها عام (765هـ/1364م) للتدريس فيها.

و التاريخ الذي ذكره يحيى بن خلدون هو المرجّح لأنه كان معاصر لبناء هذه المدرسة و كان أيضا من رجالات بلاط السلطان أبي حمو و مُلِمًّا بما كان يجري في مدينة تلمسان من أحداث.

و تميزت المدرسة اليعقوبية بأبهة البناء وسعة الفناء، و في هذا الصدد يقول يحيى بن خلدون "ولّى شطرها بصر الاختيار و مد إليها يد الإنفاق، فضاعف بها الفعلة و أحمد المغارس و أسمك المصانع و أرحب الأبنية، و حبر الغروس و استجلب الأمياه و أجزل الأوقاف و عين الجرايات و رسم فيها الخطط".[15]

ووصفها أخد المؤرخين قائلا: "و أنشأ مدرسة القرآن و العلوم و أنفق فيها من الحلال المعلوم، فأقيمت مدرسة مليحة البناء واسعة الفناء، بُنيت بضروب من الصناعات، ووُضعت في أبدع الموضوعات سمكها بالصّبغة مرموق، و بساط أرضها بالزليج مرسوم غرس بإزائها بساتين يكتنفها، وضع فيها صهريجا مستطيلا و على طرفيه من الرخام خصتان يطردان مسيلا، فيا لها من بنية، ما أبهجها.[16]

هذا واهتم السلطان أبو حمو موسى الثاني بموظفي و طلبة المدرسة اليعقوبية فأغدق عليهم بالأرزاق، و عين لهم رواتب تيسر لهم طريق العلم.

- **نظام التعليم و مراحله في المدارس التلمسانية:**

يعد التعليم من العوامل الأساسية الهامة التي دفعت عجلة الحركة الفكرية نحو التقدم والتطور و الإزدهار و ترقية العلوم و الآداب و نشر الثقافة و العلم بين أفراد المجتمع، و ترقيته سلوكيا وحضاريا، و كان التعليم ببلاد المغرب الأوسط يمر بثلاث مراحل تعليمية، أولها المرحلة الإبتدائية ثم المرحلة الثانوية ثم المرحلة الأخيرة، ألا و هي مرحلة التعليم العالي.

و لقد سار التعليم في المغرب الأوسط خلال القرن (9هـ/15م) على هذا النظام ففي المرحلة الابتدائية كان التعليم يقتصر على تعليم القراءة و الكتابة و تحفيظ القرآن الكريم للصبيان، و كان يتم ذلك في الكتاتيب و المساجد و الزوايا.(17)

فكان المعلم حريصا على تحفيظ القرآن للصبيان و تعليمهم الهجاء و الشكل و الخط الحسن والقراءة و يتفقد من حين إلى آخر حفظهم للسور القرآنية في الفترة المسائية من يوم الأربعاء والخميس، و كان يعلمهم أيضا أمور العبادة كالوضوء و الصلاة.

و هذه الطريقة من التعلم استحسنها ابن خلدون، و رأى بأن تعلم القرآن الكريم هو أصل التعليم، و أول ما يجب على الصبيان تعلمه فبه تُبنى الملكات(18)، و أورد أيضا بأن أهل المغرب كانوا يقتصرون على تعليم أبنائهم تحفيظ القرآن الكريم و قراءاته المختلفة و الكتابة، و أحيانا يضيفون إليه شيئا من الفقه أو الحديث أو الشعر.

هذا ما جعل أهل المغرب أقوى على حفظ القرآن و رسمه من سواهم أما المرحلة الثانية و هي مرحلة التعليم الثانوي فكانت تتم في المساجد الجامعة و المدارس، حيث يُقْبِل الطلاب على دراسة تفسير القرآن و الفقه، و علوم اللغة من نحو و آداب، مما يمكنهم من مزاولة المرحلة الأخيرة من التعليم و هي مرحلة التعليم العالي، و معرفة أمور دينهم و الإلمام بمختلف العلوم سواء الدينية أو الأدبية.(19)

أما المرحلة الأخيرة (مرحلة التعليم العالي)، فكان للطالب الحق في إختيار التخصص الذي ريده، لهذا كان معظم الطلبةيتجهون للعلوم الدينية كالإلمام بتفسير القرآن و علومه من قراءات و رسم ومعرفة علوم الحديث و الفقه خاصة المالكي.

و كان للطلاب أيضا الحق في اختيار أساتذتهم و أوقات دروسهم و مدة بقائهم في المؤسسة التعليمية (المدرسة)، و بعد تضلع الطلبة في العلوم يرتحلون إلى بلدان أخرى سواء ببلاد المشرق كمصر و دمشق و بغداد و المدينة المنورة أو بلاد المغرب كتونس و فاس و مراكش، للقاء أشهر علمائها للأخذ منهم و توسيع معارفهم و نبوغ فكرهم، و في هذا الصدد قال ابن خلدون: "إن البشر يأخذون معارفهم و أخلاقهم و ما ينتحلون به من المذاهب و الفضائل تارة علما و تعليما و إلقاء و

تارة محاكاة و تلقينا بالمباشرة، إلا أن حصول الملكات عن المباشرة و التلقين أشد استحكاما و أقوى رسوخا، فعلى قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكات و رسوخها...فالرحلة لابد منها في طلب العلم لاكتساب الفوائد و الكمال، بلقاء المشايخ، و مباشرة الرجال...".[20]

- **طرق التعليم:**

كانت طريقة التعليم المعتمدة في العهد الزياني تتمثل في الإلقاء و الشرح، و هو أن يقوم أحد الطلاب النجباء من ذوي النباهة و الذكاء في حلقة الدرس، بقراءة نص من كتاب مشهور التداول في المادة المراد دراستها، ثم يقوم الأستاذ بشرحه و تحليله على شكل فقرات حسب ما يتصف به الأستاذ من غزارة الحفظ و سعة الإطلاع.[21]

أما الطلبة فيستمعون و يدونون ما شرحه الأستاذ و أجوبة الأسئلة التي ألقوها عليه، و عدت هذه الطريقة من أحسن الطرق التعليمية مما كانت عليه في غيرها من الحواضر الأخرى كفاس ومراكش و القيروان.

أما في القرن (8هـ و 9هـ) تغيرت طريقة التعليم، حيث أصبح طلبة العلم يأخذون العلوم أو كل حسب قدراته معتمدين على قوة الحفظ و الذاكرة، لكن دون مناقشة و تحليل ثم يناظرون و يجادلون بعد ذلك المسائل الصعبة، فهذه الطريقة من التعليم أكسبت الطلبة قوة البحث و المناظرة، و قال ابن خلدون: "و أيسر طرق حصول الملكة إنما يكون بفتق اللسان بالمحاورة و المناظرة في المسائل العلمية، فهو الذي يقرب شأنها و يحصل مرامها...".[22]

و بفضل هذه الطريقة صار الأساتذة يخاطبون طلابهم حسب ما لديهم من معلومات و ما يتمتعون به من ذكاء و قوة الإستيعاب مما ساهم في انتشار العلوم و ازدهارها ازدهارا كبيرا في تلمسان و جميع انحاء بلاد المغرب الأوسط.

- **أشهر العلماء المدرسين بمدارس تلمسان:**

اشتهرت المدارس الزيانية بمدينة تلمسان بمُدَرِّسيها الذين اعتبروا من أشهر العلماء و نذكر منهم:

- **ابني الإمام:**

أكبرهما أبو زد عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله، عرف بابن الإمام هو و أخوه أبو موسى عيسى، نشآ بمدينة برشك التي كان والدهما إماما بها، اشتهرا بالرسوخ في العلم و الاجتهاد و الإستقامة و التقوى، رحلا إلى تونس من أجل العلم، ثم ذهبا إلى فاس ثم رجعا إلى بلاد المغرب الأوسط، ثم توجها إلى البقاع المقدسة من أجل أداء فريضة الحج ثم رجعا إلى تلمسان بزاد علمي واسع في مختلف العلوم، فأكرمهما السلطان أبو حمو موسى الأول، و اهتم بهما و بنى لهما مدرسة

سميت باسمهما "ابني الإمام" فدرسا بها، و كانت لهما مكانة كبيرة في الأوساط العلمية سواء شرقا أو غربا، حيث قال فيهما الونشريسي: "هما الشيخان الراسخان الشامخان العالمان المفتيان، الفقيه العلامة آخر صدور أعلام المغرب بشهادة أهل الإنصاف شرقا و غربا أبو زيد، و العلامة النضار آخر أهل النظر جامع شتات المعارف أبو موسى"[23]، و قال فيهما المقري: "كان أبو زيد من العلماء الذين يخشون الله، حدثني أمير المؤمنين المتوكل ابن عنان أن والده أمير المسلمين أبا الحسن ندب الناس إلى الإعانة بأموالهم على الجهاد، فقال له أبو زيد: "لا يصح لك هذا حتى تكنس بيت المال، و تصلي ركعتين كما فعل علي بن أبي طالب[24]، و بعد حياة مليئة بالعلم و الدين، توفي أبو زيد بن الإمام سنة (743هـ/1342م) و دفن بتلمسان، ثم توفي من بعده أخيه موسى من جراء الطاعون سنة (749هـ/1348م).

- **أبو موسى عمران المشدالي (ت 745هـ/1344م):**

أصله من مدينة بجاية و انتقل إلى تلمسان فعينه السلطان أبوتاشفين الأول للتدريس بمدرسته، فدرس العلوم الدينية كالفقه و الفرائض و الحديث.[25]

- **أبو عبد الله الآبلي (ت 757هـ/1356م):**

هو أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن أحمد العبدري التلمساني المعروف بالآبلي و أصله من الأندلس ولد سنة (681هـ/1282م)، و اشتهر الآبلي بتحكمه في العلوم العقلية التي عكف على تعلمها و التضلع فيها، و كان للآبلي مكانة علمية مميزة في عصره، إذ يقول فيه تلميذه يحيى بن خلدون: "و شيخنا العالم الأعلى الشيخ أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الآبلي، المعلم الأصغر، من بيت نباهة في الجند...و كان طالبا للعلم، جماعة لكتبه فعكف عنده على النظر إلى أن فاق أهل زمانه في العلوم العقلية كلها حتى أني لا أعرف بالمغرب و إفريقية فقيها كبيرا إلا و له عليه مشيخة"[26]، ووصفه أيضا عبد الرحمن بن خلدون قائلا: "و هو سيدنا و مولانا الإمام الكبير العالم العلامة فخر الدنيا، حجة الإسلام و المسلمين غياث النفوس، أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الآبلي رضي الله عن مقامه و أوزعني شكر إنعامه، شيخ الجلالة و إمامها و مبدأ المعارف و ختامها أفاض علينا سيب علومه و حلانا بمنثور دره و منظومه...".[27]

- **أبو عبد الله محمد الشريف التلمساني (771هـ/1370م):**

هو محمد بن أحمد بن علي الشريف الإدريسي، يكنى بأبي عبد الله و إسم شهرته الشريف التلمساني، ولد سنة (710هـ/1310م) من أسرة تنتمي إلى الأشراف، و كان للشريف التلمساني مكانة علمية شهد له بها شيوخه و تلاميذه، نظرا لإجتهاده في العلوم، إذ قال عنه الآبلي: "قرأ عليا كثيرا شرقا و غربا فما رأيت أنجب من رابعة أعقلهم و أكثرهم تحصيلا "أبو عبد الله الشريف"[28]، و قام السلطان أبو حمو موسى الثاني بإكرامه فزوجه ابنته و بنى له المدرسة اليعقوبية سنة

(756هـ/1364م)ن و كلفه بالتدريس فيها، بقي ينشر العلم قراءة و تأليفا و نسخا إلى أن وافته المنية سنة 1369م.

- **أبوزكرياء يحيى بن خلدون (ت 780هـ)**

هو يحيى بن محمد بن محمد بن الحسن بن محمد بن جابر بن محمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن خلدون، ولد بتونس سنة (734هـ/1333م) من عائلة أندلسية و التي عرفت بكثرة علمائها، فكان مهتما بالعلوم الدينية و الأدب و الشعر فأخذ عن العلماء حفظ القرآن الكريم و علم القراءات و العلوم العقلية التي أخذها عن علماء المغرب الإسلامي و أشهرهم أبي عبد الله السلطي (ت 750هـ) الذي عرف بتضلعه في الفقه على مذهب مالك، و أبي عبد الله محمد بن محمد الصباغ الذي كان ذو باع كبير في علم الحديث.(29)

- **أحمد بن زاغو (ت 849هـ):**

هو أحمد بن محمد بن عبد الرحمن الشهير بابن زاغو المغراوي التلمساني ولد في حدود سنة (782هـ) بتلمسان، نشأ بمسقط رأسه و تعلم في المدارس و المساجد، و أخذ على مجموعة من العلماء أشهرهم: أبي عثمان سعيد العقباني (ت 811هـ/1408م)، وُصِف بالمفتي المصنف ، المدرس، المؤلف، الذي عُدَّ أعلم الناس في التفسير و تفوقه على أقرانه في مذهب مالك و تألقه في علم الحديث و الأصول و قدم راسخة في التصوف، و أفاد بعلمه الغزير الكثير من طلبة المدرسة اليعقوبية التي كان يدرسهم فيها التفسير و الحساب و الفرائض و الهندسة.(30)

- **العلوم المدرسة بمدارس تلمسان:**

اشتهرت مدارس تلمسان الزيانية بعلومها المختلفة سواء النقلية أو العقلية.

- **العلوم النقلية:**

أما العلوم النقلية التي تتمثل في العلوم الدينية و هي العلوم الشرعية التي إتخذت من القرآن و السنة مصدرا و منطلقا لها و في مقدمتها تفسير القرآن الكريم إذ إهتمالزيانيونبالقرآن الكريم و دراسته وحفظه و تفسيره فاتخذ المفسرون القرآن الكريم في إتجاهين فالاتجاه الأول هو التفسير المأثور والمنقول و يستند إلى الآثار المنقولة عن النبي صلى الله عليه و سلم، أما الاتجاه الثاني فيرتكز على الرأي و الاجتهاد و لا يتحقق ذلك إلا بالتمكن من اللغة العربية، حتى يتمكن المفسر من تأدية المعنى بحسب المقاصد و الأساليب لأن القرآن الكريم نزل بها.(31)

أما علم القراءات فتضمن عدة فروع و هي فن القراءات و فن الرسم و يتضمن أيضا أوضاع حروف القرآن في المصحف و رسومه الخطية، أما علم الحديث فيراد به حفظ ما نقل عن الرسول صلى الله عليه و سلم من قول أو فعل أو تقرير و ما نقل عن أصحابه، و لقد اهتم علماء تلمسان بعلم الحديث لما له من قيمة كبيرة في الدين الإسلامي باعتباره يأتي في المرتبة الثانية بعد

القرآن الكريم، فتوسعوا في دراسته، و كانت تعقد مجالس عديدة يحضرها عامة الناس بما في ذلك الشيوخ و الطلبة.[32]

و كان الاهتمام كبيرا بعلم الفقه و الذي عرفه ابن خلدون بقوله: "هو معرفة أحكام الله تعالى في أفعال المكلفين بالوجوب و الحظر و الندب و الكراهة و الإباحة و هي متلقاة من الكتاب و السنة، و ما نصبه الشارع لمعرفتها من الأدلة فإذا استخرجت الأحكام من تلك الأدلة قيل لها فقه، فهو يتناول جميع المسائل التي تواجه الإنسان في حياته الشخصية و الدينية و الاجتماعية و الاقتصادية و يضع القواعد التي تنظم حياته[33]، إضافة إلى علوم أخرى مثل علم الكلام الذي كان يتناول المسائل الدقيقة في الدين الإسلامي من التوحيد و الصفات الإلهية و حقيقة النبوة و القرآن الكريم، كما انتشر في عهد الموحدين علم التصوف و يقصد به العبادة و الزهد و البعد عن ملذات الدنيا و التفرغ للعبادة.

هذا و اهتم الزيانيون بالعلوم اللسانية التي تتضمن اللغة العربية التي اعتبرت من أغنى اللغات وأرقاها، لما تتميز به من كثرة المفردات و اتصفت بالمرونة و القدرة على صياغة المشتقات من ألفاظها، وبذلك حظيت الدراسات اللغوية باهتمام علماء و أدباء تلمسان، فكانوا يختصرون و يعللون وينظمون الأراجيز و يجمعون و يبسطون المؤلفات، و يشرحون الكتب الصعبة و يحللونها و ينتقدونها[34]، إضافة إلى الأدب الذي شمل الشعر و النثر، و عرف ابن خلدون الأدب قائلا: "أعلم أن لسان العرب و كلامهم على فنين في الشعر المنظوم و هو الكلام الموزون و المقفى، و معناه الذي تكون أوزانه كلها على رويّ واحد و هو القافية، و في النثر و هو الكلام غير الموزون و كل واحد من الفنين يشتمل على فنون ومذاهب في الكلام".[35]

و قسم القدماء النثر إلى أشكال أدبية بما في ذلك الخطابة و الحديث و انحصرت أعمال النثر في مدينة تلمسان في الرسائل و عدد الكتب التاريخية و الأدبية نظرا لإندثار معظم الأعمال النثرية الأخرى لا سيما فن المقامات و الخطب، و بلغ هذا الفن في تلمسان في القرن 8 و 9 الهجريين درجة كبيرة و منزلة هامة، فبرز فيه مجموعة من كتاب تلمسان ذاع صيتهم في أقطار المغرب و المشرق الإسلامي، و أشهرهم أبو بكر بن الخطاب المرسي الأندلسي سنة (688ه/1289م) و الذي ترك أثرا كبيرا في فن الكتابة بتلمسان في عهد يغمراسن بن زيان[36]، و اشتهر أيضا ابن مرزوق الخطيب (ت 780ه/1378م) و المقريالجدّ (ت 759ه/1356م) و الشريف التلمساني (771ه/1370م)أما بالنسبة للشعر فهو فن من فنون من كلام العرب، مُفضل إلى قطع متساوية في الوزن و متحددة في الحرف الأخير من كل قطعة و تسمى كل قطعة من هذه القطع بيتا و يُسمى الحرف الأخير الذي تتفق به رويا و قافية و يسمى جملة الكلام إلى آخره قصيدة.[37]

و لقد ازدهر الشعر بتلمسان في العهد الزياني ازدهارا ملحوظا كغيره من العلوم و الفنون المختلفة، ومن أبرز الشعراء ابن مرزوق الخطيب و يحي بن خلدون (ت 780ه).[38]

و اهتم الزيانيون أيضا بالتاريخ لتسجيل الأحداث من غزوات و فتوحات فبرز مجموعة من المؤرخين الزيانيين و الذين دونوا مصنفات في تاريخ دولتهم و حضارتهم، و تناولوا فنون التاريخ و فروعه كالسير والتراجم و تاريخ الملوك و الخطط و غيرها من المصنفات ذات الصلة بالتاريخ و من أشهر مؤلفات المؤرخين الزيانيين أبي زكريا يحيى بن خلدون الذي ألف "بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد"، وتعرض إلى تاريخ دولة بني عبد الواد منذ النشأ.[39]

و اشتهر في التاريخ أيضا ابن مرزوق الخطيب في كتابه "المسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا أبي الحسن"، و الذي جعله بمثابة السيرة الذاتية للسلطان أبي الحسن المريني، و تخللته بعض الأحداث الخاصة بتاريخ بني زيان و بني مرين، إضافة إلى كتابة "نظم الدر و العقيان في بيان شرف بني زيان" للحافظ محمد بن عبد الله التنسي (ت 899هـ).

- **العلوم العقلية:**

أما العلوم العقلية فشملت العلوم العددية من (فرائض و حساب و جبر و هندسة): و المنطق و الطب والكيمياء و الفلك و عرفت هذه العلوم ازدهارا ملحوظا بفضل نشاط العلماء و بتشجيع من السلاطين و الحكام و قد عرف ابن خلدون علم المنطق قائلا: " هو قوانين يعرف بها الصحيح من الفاسد في الحدود المعروفة للماهيات و الحجج المفيدة للتصديقات"[40]، و من أشهر العلماء الزيانيين الذين اهتموا بهذا العلم نذكر ابن مرزوق الحفيد (ت 842هـ)، و محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني (ت 909هـ) و محمد بن يوسف السنوسي (ت895م) الذي ألف شرح مختصر ابن عرفة و مختصر علم المنطق.[41]

أما بالنسبة للرياضيات فقد أدت دورا بالغ الأهمية في العلوم العقلية و عرفها ابن خلدون قائلا: " إنما المعرف خواص الأعداد من حيث التأليف إما على التوالي أو بالتضعيف"، و من أشهر المصنفات التي كانت تستخدم في العلوم العددية بتلمسان خلال العهد الزياني "أرجوزة ابن الياسمين"[42] في الجبر و"تلخيص أعمال الحساب" لابن البناء (ت 721هـ).[43]

و برز في العلوم العددية الشيخ القاضي سعيد بن محمد العقباني التلمساني (811هـ/1418م)، الذي قام بشرح كتاب الحوفي[44] في الفرائض، و شرح تلخيص ابن البناء، و قصيدة ابن الياسمين في الجبر والمقابلة.

أما بالنسبة لعلم الفلك فيدرس حركة الكواكب الثابتة و المتحركة و المتحيزة بطرق هندسية و من فروعه علم حساب حركة الكواكب لتحديد موقعها[45]، و اشتهر من علماء تلمسان في علم الفلك وتخصصوا فيه "محمد بن أحمد التلمساني" المعروف بالحباك (ت867هـ/1462م)، الذي تميز بتدريس علم الإسطرلاب ووضعه فيه أرجوزة سماها "بغية الطلاب في علم الإسطرلاب"، و محمد بن يوسف السنوسي الذي قام بشرح قصيدة أستاذه الحباك، و سماها "عمدة ذوي الألباب

و نزهة الطلاب في شرح بغية الطلاب في علم الإسطرلاب"، و إلى جانب هذه العلوم اهتم الزيانيون بالعلوم الطبيعية بما في ذلك الطب و علم الفلاحة والكيمياء.(46)

خاتمة:

كان للمدارس الزيانية الفضل الكبير في تطور و ازدهار الحركة الفكرية و الثقافية بالمغرب الأوسط، إذ توافد عليها الطلبة من مختلف الأقطار لينهلوا من علومها إضافة إلى توافد العلماء و الفقهاء للتدريس بها، كما كان للسلاطين الزيانيين الدور الكبير في ازدهار هذه المدارس فبفضل عنايتهم و اهتمامهم وإشرافهم الشخصي على تعيين المدرسين بها و الاهتمام بالطلبة و توفير احتياجاتهم من مأوى و كتب، استطاعت المدارس القيام بدورها على أكمل وجه كما كثر عدد المدرسين بها، إضافة إلى تنوع العلوم من نقلية و أخرى عقلية.

و كان هدف بني زيان من وراء بناء المدارس في حاضرتهم تلمسان هو نشر التعليم و الثقافة من جهة، وتوجيه الرعية من أجل وحدة السياسة المنتهجة التي كانوا يسيرون عليها و المتمثلة في نصرة المذهب المالكي من جهة أخرى، لذلك كانت المدارس احدى الوسائل لتحقيق هذه الغاية.

أما بالنسبة للعلوم المدرسة بمدارس تلمسان فقد اختلفت و تنوعت من علوم دينية و علوم اللغة وعلوم عقلية و أخرى اجتماعية كما قام العلماء بالتصنيف و التأليف فيها، فكان لهم الدور الكبير في دفع الحركة العلمية و الثقافية إلى الأمام بالمغرب الأوسط خاصة و الغرب الإسلامي عامة.

الهوامش:

(1)- محمد بن عبد الجليل التنسي، نظم الدر و العقيان في بيان شرف بني زان، تح: محمود بوعياد، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1985، ص139.

(2)- الونشريسي، المعيار المعرب و الجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية و الأندلس و المغرب، ج7، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1981، ص 262-264.

(3)- هو الحسن بن علي بن إسحاق أبو علي الملقب بقوام الدين أو نظام الملك وزير السلطان ألب أرسلان ثم لابنه ملكشاه، قُتل و هو يصلي بالموصل، علي محمد محمد الصلابي دولة السلاجقة و بروز مشروع إسلامي لمقاومة التغلغل الباطني و الغزو الصليبي، ط1، دار التوزيع و النشر الإسلامية، القاهرة، 2006، ص 123-131.

(4)- حسن الوزان، وصف إفريقيا، تح: محمد حجي، محمد الأخضر، ج2، دار الغرب الإسلامي ، بيروت، 1983، ص 19-30.

(5)-Rachid Bouiba, l'art religieux, musilmans en algérie, Alger, 1973, p.p 75-77.

(6)- ابن مرزوق الخطيب، المسند الصحيح الحسن في مآثر و محاسن مولانا أبي الحسن، تح: ماريا خيسوسبغيرا، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، 1981، ص 252.

(7)- يحيى بن خلدون، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، تح: عبد الحميد حاجيات، ج2، المكتبة الوطنية، الجزائر، 1980، ص 130.

(8)- التنسي، المصدر السابق، ص 141.

(9)- التنسي، المصدر السابق، ص 140.

(10)- ابن مرزوق الخطيب، المصدر السابق، ص 406.

(11)- حسن الوزان، المصدر السابق، ص 187.

(12)- باب إيلان هو أحد أبواب تلمسان، كان يقع في وسطها و بعيدا عن الأسوار،

Marçais (G) et william, les mouvement Arabes de Tlemcen fontemoing, paris, 1903, p117.

(13)- يحي بن خلدون، المصدر السابق، ص 57.

(14)- يحي بن خلدون، المصدر السابق، ص 200.

(15)- يحي بن خلدون، المصدر السابق، ص 136

(16)- حاجيات، أبو حمو موسى الزيانين حياته و آثاره، ط2، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، 1983، ص 182.

(17)- حاجيات، المرجع نفسه، ص 35

(18)- عبد الرحمن بن خلدون ، المقدمة، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع، بيروت، لبنان، 1996، ص 740.

(19)- حاجيات، المرجع السابق، ص 35.

(20)- ابن خلدون، المصدر السابق، ص 744-745.

(21)- عبد الحميد حاجيات و آخرون، الجزائر في التاريخ، العهد الإسلامي، ج3، وزارة الثقافة و السياحة و المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص 438.

(22)- ابن خلدون، المصدر السابق، ص 743.

(23)- الوزير السراج، الحلل السندسية في الأخبار التونسية، تح: محمد الحبيب الهيلة، ج1، الدار التونسية للنشر و التوزيع، تونس، 1970، ص 809-810.

(24)- المقري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب و ذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تح: يوسف الشيخ محمد البقاعي، ج7، ط1، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع، بيروت، 1988، ص 221.

(25)- يحي بن خلدون، المصدر السابق، ج1، ص 130.

(26)- يحي بن خلدون، المصدر السابق، ص 51.

(27)- ابن مريم، المصدر السابق، ص 217.

(28)- التنبكتي، نيل الابتهاج، ص 430.

(29)- يحي بن خلدون، المصدر السابق، ص 33.

(30)- التنبكتي، المصدر السابق، ص 120.

(31)- ابن خلدون، المصدر السابق، ج2، ص 530.

(32)- عبد العزيز فيلالي، تلمسان في العهد الزياني، ج1، موفم للنشر و التوزيع، الجزائر، 2002، ص 442.

(33)- عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج2، ص 541.

(34)- عبد العزيز فيلالي، المرجع السابق، ص 736.

(35)- ابن خلدون، المصدر السابق، ص 127.

(36)-التنسي، المصدر السابق، ص 127.

(37)-ابن خلدون، المصدر السابق، ص 739.

(38)- عبد العزيز فيلالي، المرجع السابق، ص 464-465.

(39)-يحي بن خلدون، المصدر السابق، ج2، ص 20-40.

(40)-ابن خلدونّ، المصدر السابق، ص 913.

(41)-عبد العزيز فيلالي، المرجع السابق، ص 478.

(42)-عبد العزيز فيلالي، المرجع السابق، ص 470.

(43)-عبد الحميد حاجيات و آخرون، المرجع السابق، ص 447-448.

(44)-محمود بوعياد، جوانب من الحياة في المغرب الأوسط، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، 1982، ص 72.

(45)-ابن خلدون ، المصدر السابق، ج2، ص 601.

(46)- محمود بوعياد، المرجع السابق، ص 85-88.